

المعنى البلاغي للعدد في الحديث النبويّ

قرائنه ودلالاته

بحث علمي مُعدّ للتحكيم مُقدّم لمجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية

الدكتورة منى عبد الحكيم العسه

قسم علوم القرآن والحديث / كلية الشريعة / جامعة دمشق.

ملخص البحث

حاولَ هذا البحثُ من خلال استقراء بعض النصوص النبويّة التي ورد فيها ذكرُ الأعداد، واستقراء شروحها، وتحليل كلام العلماء فيها، حاول جمعَ القرائن التي ذكرها العلماءُ في ترجيح حملِ المعنى المرادِ من العدد في النص النبوي على معناه المجازيِّ البلاغيِّ دون المعنى الحقيقي الحصريِّ، ثم تطرّقَ البحثُ إلى الدلالاتِ البلاغية التي استعملَ العدد من أجلها في تلك النصوص، وذلك بهدف الوصولِ إلى فهمٍ أقربَ وأرجحَ للنصّ النبوي.

The Number`s Rhetorical Meaning In Prophetic Texts, Evidence and Clues

Dr. Muna Al-Assah

Faculty of Sharia

University of Damascus

Abstract

Through examining some prophetic texts which include numbers, following its explanation and analyzing the scholars`statements (WORDS); this research tries to collect the evidence which were mentioned by the scholars who prefer to take the number`s metaphorical and rhetorical meaning in the prophetic text rather than its real exclusive one. The research ,also shows the rhetorical clues which the number has been used for its own in those texts to have better and nearer understanding for the prophetic text.

المعنى البلاغي للعدد في الحديث النبوي

قرائنه ودلالاته

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هديه إلى يوم الدين. أمّا بعد:

ضمّت نصوص الحديث النبوي الشريف أعداداً متنوعة وظّفها البيان النبوي وظائف متعدّدة، وقد تنوع استعمال هذه الأعداد بين استعمال حقيقي يراد به المعنى الظاهري الرقمي للعدد، وبين استعمال بلاغي مجازي لا يراد به هذا المعنى الظاهري إنما معنى آخر قصد من ورائه.

وقد وجدت في اختلاف العلماء في حمل المعنى المراد من الأعداد الواقعة في بعض النصوص النبوية على المعنى الحقيقي أو البلاغي دافعاً لهذا البحث، فحاولت من خلال استقراء بعض النصوص النبوية وشرح العلماء لها ثم تحليلها بيان القرائن التي استدلت بها العلماء في ترجيح حمل العدد على معناه البلاغي دون الحقيقي، ثم حاولت بيان الوجوه البلاغية التي استعمل العدد من أجلها. ولا يخفى ما لهذا من أهمية بالغة يتوقّف عليه فهم النص النبوي فهماً صحيحاً، وإزالة ما قد يُشكل فيه.

هذا ولن يخوض البحث في الدلالة الحقيقية الرقمية للعدد، ولا في مفهوم العدد وخلاف العلماء في حجّيته إذ إنّ الكلام فيهما يطول، وقد نبّه العلماء أنّ الخلاف الواقع في حجّية مفهوم العدد إنّما هو في العدد الحقيقي المراد به الحصر لا التكثر أو غيره من وجوه البلاغة⁽¹⁾، والذي يعيننا في هذا البحث إنّما هو الدلالة البلاغية فقط.

وقد حاولت جاهدة البحث في كتب البلاغيين وغيرهم ممّن عنى بالنص النبوي أو حتى القرآني عن تأصيل لهذا الموضوع أو ما يرشد إليه فلم أهدد لذلك. أسأل الله تعالى أن يكون هذا البحث فاتحة خير للخوض في هذا الموضوع والتعمق فيه من قبل الباحثين في المستقبل.

هذا وقد جاء البحث وفق الخطة الآتية:

(1) انظر: البحر المحيط للزركشي ١٧٢/٥.

مقدمة: تتضمن أهمية البحث، وسبب اختياره، ومنهجه وخطته.

المبحث الأول: قرأئ إرادة المعنى البلاغي للعدد:

المطلب الأول: استعمال الأعداد المعهودة في المبالغة عند العرب.

المطلب الثاني: السياق والمقام.

المطلب الثالث: إبهام آحاد العدد.

المطلب الرابع: اختلاف الأحاديث أو الروايات في تعيين العدد.

المطلب الخامس: مخالفة العدد المذكور لواقع الحال.

المبحث الثاني: الدلالات البلاغية للعدد:

المطلب الأول: التكثر.

المطلب الثاني: التقليل.

خاتمة: نتائج البحث.

المبحث الأول: قرائن إرادة المعنى البلاغي للعدد:

تمهيد:

من المقرّر عند العلماء أن الأصل في الكلام حمّله على معناه الحقيقيّ الظاهري إلى أن تأتي قرينة تصرفه عن ذلك، وهذه القاعدة يدخل ضمنها العدد؛ إذ الأصل أن يُحمَلَ على دلالته الرقمية العددية الحصرية إلى أن تأتي القرينة الصارفة عن ذلك.

وهذا ما نصّ عليه العلماء؛ يقول الحافظ ابن حجر (ت: ٨٥٢هـ) في قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرِنِي اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيد على السبعين^(١): "وكون ذلك وقع من النبي ﷺ متمسكاً بالظاهر على ما هو المشروع في الأحكام إلى أن يقوم الدليل الصارف عن ذلك لا إشكال فيه"^(٢).

وفي شرح حديث «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»^(٣) قال الإمام العراقي (ت: ٨٠٦هـ): "ولا يقوم على التكثير دليل، والظاهر أن المراد التحديد، وقال أبو العباس القرطبي^(٤) إنّه أظهر وأولى"^(٥).

ويقول الإمام الألويسي (ت: ١٢٧٠هـ): "جاء في الأخبار الصحيحة أن ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة عام، وارتفاع كل سماء عن سماء، وثخن كل كذلك. والظاهر تقدير ذلك بالسير المتعارف، وأن المراد بالعدد المذكور التحديد دون التكثير، ونحن مع الظاهر إلا أن يمنع عنه مانع"^(٦).

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن/ باب قوله {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم}/ رقم (٤٣٩٣)، ومسلم في فضائل الصحابة/ باب من فضائل عمر رضى الله عنه رقم (٢٤٠٠).

(٢) فتح الباري ٣٣٩/٨.

(٣) أخرجه مسلم في القدر/ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام/ رقم (٢٦٥٣).

(٤) في كتابه: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦٦٩/٦.

(٥) طرح التثريب ٢٥٠/٨.

(٦) روح المعاني ٢٣٢/١٥.

فما هي القرائن التي يمكنُ من خلالها صرفُ العددِ عن معناه الحقيقيِّ الظاهريِّ إلى معناه البلاغيِّ المجازيِّ؟

من خلالِ استقراءِ عددٍ من النصوصِ النبويَّةِ وتعليقاتِ العلماءِ عليها وجدتُ أنَّ هناك عدداً من القرائنِ التي استدلَّ بها العلماءُ على إرادةِ المعنى البلاغيِّ للعددِ دونِ المعنى الحقيقيِّ، مع التنبيةِ على إمكانيةِ اجتماعِ أكثرَ من قرينةٍ في النصِّ الواحدِ. وقد عرضتُ هذه القرائنَ مع التمثيلِ عليها من النصوصِ النبويَّةِ من خلالِ المطالب الآتية:

المطلب الأول: استعمال الأعداد المعهودة في المبالغة عند العرب:

تعارفتِ العربُ على استعمالِ أعدادٍ مخصوصةٍ أرادوا بها التكثرِ أو التعظيمَ أو غيرها من وجوه البلاغةِ دونَ إرادةِ معناها الحقيقيِّ الحصريِّ، وأكثرُ هذه الأعدادِ استعمالاً في ذلك السبعةُ ومشتقاتُها.

قال أبو حيَّان (ت: ٧٤٥هـ): "السبعةُ، والسبعون فيه دلالةٌ على تضاعيفِ القوَّةِ والشدَّةِ كأنه ضوعف سبع مرَّاتٍ. ومن شأنِ العربِ أن يبالغوا بالسبعةِ والسبعينِ من العددِ لما في ذكرها من معنى المضاعفة"^(١).

وقال ابنُ الأثير (ت: ٦٠٦هـ): "وقد تكررَ ذكرُ السبعينِ، والسبعةِ، والسبعمئةِ في القرآنِ والحديثِ، والعربُ تضعها موضعَ التضعيفِ والتكثيرِ"^(٢).

وقال الحافظُ ابنُ حجر: "ولفظُ السبعةِ يطلقُ على إرادةِ الكثرةِ في الأحادِ، كما يطلقُ السبعينِ في العشراتِ، والسبعمئةِ في المئينِ ولا يُرادُ العددُ المعينِ"^(٣).

وهذا متفقٌ عليه في استعمالِ السبعةِ ومشتقاتها في المبالغةِ على ما عهدَ من لسانِ العربِ، أما ما سواها من الأعدادِ فقد وقعَ الخلافُ فيها، ومن ذلك المائةُ:

(١) البحر المحيط ٢١٩/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث (سبع) ٨٤٢/٢.

(٣) فتح الباري ٢٣/٩.

ذكر القرطبي في شرح حديث «جعل الله الرحمة مائة جزء»^(١) عن بعض الشراح أنّ هذا العدد الخاصّ أُطلق لإرادة التكثير والمبالغة فيه، وتعقّبته بأنّه لم تجر عادة العرب بذلك في المائة^(٢).

والخمسة:

قال الإمام الملا علي الفاريّ (ت: ١٠١٤هـ) في شرح حديث «لو أمسك الله عزّ وجلّ المطر عن عباده خمس سنين...»^(٣): "خمس سنين: أي مثلاً، أو المراد مدّة تُورث الإقنات عن إنزال الغيث، وأمّا قول الطيّبيّ: لم يُرد به التحديد، بل طول الزمان^(٤)، ففيه بُعد؛ لأن عدد الخمس ليس متعارفاً في التكثير"^(٥).

والتسعة ومشتقاتها:

قال الإمام المناويّ (ت: ١٠٣١هـ) في شرح حديث «لا حول ولا قوّة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داءً أيسرها الهَمّ»^(٦): "النقيذُ بالعدد موكولٌ إلى علم الشارع، ويحتملُ أنّ المراد التكثير، لكنّه يبعده أنّه لم يُعهد إلا في السبعين ونحوها"^(٧).

وقال المناويّ نفسه في موضعٍ آخر^(٨) في شرح حديث «مُتَّلَ ابنُ آدمَ وإلى جنبه تسع وتسعون منية...»^(٩): "وذكُر العدد المخصّص على منهج الفرض والتمثيل فليس المراد التحديد بل التكثير".

(١) أخرجه البخاري في الأدب/ باب جعل الله الرحمة مائة جزء، / رقم (٥٦٥٤)، ومسلم في التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه/ رقم (٢٧٥٢).

(٢) المفهم ٨٣/٧. وانظر: فتح الباري ٤٣٣/١٠.

(٣) أخرجه النسائي عن أبي سعيد الخدري في الاستسقاء/ كراهية الاستمطار بالكوكب/ رقم (١٥٢٦).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن ٢٩٩٨/١٢.

(٥) مرقاة المفاتيح ٢٩١٢/٧.

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة: إسحاق بن راهويه في مسنده ٤٦٤/١ / رقم (٥٤١)، والطبراني في الأوسط ١٨٧/٥ / رقم (٥٠٢٨) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٨/١٠: "فيه بشر بن رافع الحارثي وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح".

(٧) فيض القدير ٤٢٥/٦.

(٨) فيض القدير ٥١٦/٥.

(٩) أخرجه الترمذي في القدر/ باب ما جاء في القدرية/ رقم (٢١٥٠) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وسيتَّضح لنا من خلال الأمثلة الكثيرة الآتية أنَّ من العلماء من أجرى ذلك في أعداد أخرى؛ كالعشرة ومضاعفاتها، والمائة ومضاعفاتها، والألف ومضاعفاتها، وغيرها..... لذا يترجَّح في تلك الأعداد المختلف فيها البحث عن قرينةٍ أخرى ترجَّح حمل العدد على معناه البلاغي، وهذا ما سنعرضه في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: السياق والمقام:

أي أن يدل سياق الكلام على أنَّ المراد غير المعنى الحقيقي للفظ؛ بأن يكون فيه قرينةٌ لفظيةٌ سابقةٌ عليه أو متأخرةٌ عنه^(١). وهذا كثيراً ما يستدل به على تعيين المعنى المراد، ومثال وقوع ذلك في الأعداد:

حديث ((أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))^(٢) قال الإمام الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) وهو العلامة في العربية والمعاني والبيان^(٣): "والمراد بالسبعون في الحديث التكرير لا التحديد، لما ورد أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، والتكرير هنا أبلغ والمقام له ادعى"^(٤). إذ المقام مقام تعظيم وتقخير، دلَّ عليه الكلام السابق.

وقال في شرح قوله ﷺ: ((أنتم تُتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى))^(٥): "المراد بالسبعين التكرير لا التحديد؛ لئناسب إضافة الخير إلى المفرد والنكرة، لأته لاستغراق الأمم الفاتئة للحصر باعتبار أفرادها، أي إذا تقصَّبت أمةٌ أمةً من الأمم كنتم خيرها"^(٦).

(١) انظر: التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ٢٨٥/١.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث جابر ﷺ في السنة/ باب في الجهمية/ رقم (٤٧٢٧). قال ابن حجر في الفتح ٦٦٥/٨: "إسناده على شرط الصحيح".

(٣) انظر: بغية الوعاة ٥٢٢/١.

(٤) الكاشف عن حقائق السنن ٣٦٢٤ / ١٢.

(٥) أخرجه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: الترمذي في تفسير القرآن/ من سورة آل عمران/ رقم (٣٠٠١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الزهد/ باب صفة أمة محمد ﷺ/ رقم (٤٢٨٨).

(٦) الكاشف عن حقائق السنن ٣٩٧٣/١٢.

المطلب الثالث: إبهام آحاد العدد:

إذا كان العدد مركباً فإن إرادة المعنى الحقيقي له تقتضي ذكره مفصلاً لإفادة معنى الحصر، أما إذا أبهم جزء منه فقد جعل بعض العلماء ذلك قرينةً على عدم إرادة التحديد والحصر.

قال الإمام الطيبي في شرح ((الإيمان بضع وسبعون شعبة))^(١): "والأظهر أن يُذهب إلى معنى التكثر، ويكون ذكُر البضع للترقي، يعني أن شُعب الإيمان أعداد مبهمة ولا نهاية لكثرتها؛ إذ لو أُريد التحديد لم يُبهمه"^(٢).

وقال الإمام المناوي في شرح حديث: ((أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة))^(٣): "وقضية الخبر الحصر في هذا العدد، ويحتمل أن المراد المبالغة في الكثرة لكنه يبعده ذكر الاثنين مع السبعين"^(٤).

المطلب الرابع: اختلاف الأحاديث أو الروايات في تعيين العدد:

وذلك أن يأتي حديثان أو روايتان متعارضتان من حيث الظاهر في تعيين العدد للمعدود الوارد فيهما، فيكون ذلك قرينةً على أن المراد بالعدد فيهما معناه البلاغي، أو أن المراد به في أحدهما معناه البلاغي، وفي الآخر معناه الحقيقي الحصري.

فمن أمثلة اختلاف الأحاديث:

حديث أبي جُهيم رضي الله عنه مرفوعاً: ((لو يعلمُ المارُّ بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمرَّ بين يديه))^(٥)، قال الحافظُ ابنُ حجرٍ: "وفي ابن ماجه^(١) وابن حبان^(٢)

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب أمور الإيمان/ رقم (٩)، ومسلم في الإيمان/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها/ رقم (٣٥).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٤٤٠/١.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة الجنة/ باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة/ رقم (٢٥٦٢) وقال: "حديث غريب".

(٤) فيض القدير ٣٠٠/١.

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة/ باب إثم المار بين يدي المصلي/ رقم (٤٨٨)، ومسلم في الصلاة/ باب منع المار بين يدي المصلي/ رقم (٥٠٧).

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لكان أن يقف مائة عام خيراً له من الخطوة التي خطاها»، وهذا يُشعرُ بأنَّ إطلاقَ الأربعينَ للمبالغة في تعظيم الأمر لا لخصوصِ عددٍ معيّنٍ»^(٣).

وقال الإمام القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) في شرح قوله رضي الله عنه من حديث أنس رضي الله عنه: «حتى يكون لخمسين امرأةً القيم الواحد»^(٤): «هل المرادُ من قوله: (خمسين امرأة) حقيقة العدد أو المجاز عن الكثرة؟ ويؤيد الثاني ما في حديث أبي موسى رضي الله عنه «ويُرى الرجل الواحدُ يتبعُه أربعون امرأةً»^(٥)»^(٦).

وقال الإمام السندي (ت: ١١٣٨هـ) في التوفيق بين حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بخمس وعشرين درجة»^(٧)، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي وردَ فيه: «يسبع وعشرين»^(٨): «والتوفيق بينهما ممكن بحملهما أو بجعل أحدهما على التكثر دون التحديد»^(٩).

ومن أمثلة اختلاف روايات الحديث الواحد:

اختلاف تحديد عدد الليالي في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ما حقّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه، يبني ليلتين إلا ووصيته مكتوبةً عنده»^(١٠)، قال الحافظ ابن حجر: «واختلاف الروايات فيه دالٌّ على أنه للتقريب لا للتحديد»^(١١).

(١) أخرجه في إقامة الصلاة/ باب المرور بين يدي المصلي/ رقم (٩٤٦).

(٢) أخرجه في الصلاة/ باب ذكر الزجر عن مرور المرء معترضاً بين يدي المصلي/ رقم (٢٣٦٥).

(٣) فتح الباري ١/ ٥٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في العلم/ باب رفع العلم وظهور الجهل/ رقم (٨١)، ومسلم في العلم/ باب رفع العلم وقبضه/ رقم (٢٦٧١).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة/ باب الصدقة قبل الرد/ رقم (١٣٤٨)، ومسلم في الزكاة/ باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها/ رقم (١٠١٢).

(٦) إرشاد الساري ١/ ١٨١.

(٧) أخرجه البخاري في الأذان/ باب فضل صلاة الجماعة/ رقم (٦١٩).

(٨) أخرجه البخاري في الأذان/ باب فضل صلاة الفجر في جماعة/ رقم (٦٢١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة/ باب فضل صلاة الجماعة/ رقم (٦٥٠).

(٩) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٢٦٤.

(١٠) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر في الصلح/ باب الوصايا رقم (٢٥٨٧)، ومسلم في أول كتاب الوصية/ رقم (١٦٢٧).

(١١) فتح الباري ٥/ ٣٥٨.

وقال الحافظُ كذلك في شرحِ قوله ﷺ في حديث الكهان: (فيخلطون معها مائة كذبة)^(١): "في رواية ابن جريج: «أكثر من مائة كذبة» وهو دالٌّ على أن ذِكرَ المائة للمبالغة لا لتعيين العدد"^(٢).

المطلب الخامس: مخالفة العدد المذكور لواقع الحال:

قد تأتي بعض الأحاديث بأعدادٍ لا يمكنُ أن تتفقَ مع الواقع، فيكون ذلك قرينة على إرادة المجاز منها لا الحقيقة والحصر.

من ذلك ما أخرجه مسلم^(٣) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً، فمن نَبَأَكَ أنَّه كان يخطب جالساً فقد كَذَبَ، فقد والله صلَّيت معه أكثر من ألفي صلاة».

فإن هذا يتنافى مع واقع الحال، إذ إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُصلِّ طولَ فترة بعثته نصفَ هذا المقدار من صلاة الجمعة، فكيف يقول الصحابيُّ ذلك؟! قال الإمام بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ): "هذا محمول على المبالغة، لأنَّ هذا القدر من الجُمع إنَّما يكمل في نيِّفٍ وأربعين سنة، وهذا القدر لم يُصلِّه رسولُ الله ﷺ"^(٤). وقال المَلَّا علي القاري: "أراد التَّكثِيرَ لا التَّحْدِيدَ؛ لأنه ﷺ لم يُقِمَّ بالمدينة إلا عشرَ سنين، وأوَّلُ جمعةٍ صلاها هي الجمعة التي تلي قدومه المدينة، فلم يُصلِّ ألفي جمعة بل نحو خمسمائة"^(٥).

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: في الطب/ باب الكهانة رقم (٥٤٢٩)، ومسلم في السلام/ باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان/ رقم (٢٢٢٨).

(٢) فتح الباري ١٠/٢٢٠.

(٣) في الجمعة/ باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة/ رقم (٨٦٢).

(٤) عمدة القاري ٦/٢١٩.

(٥) مرقاة المفاتيح ٣/١٠٤٧.

وفي شرح حديث دخول سبعين ألفاً لا حسابَ عليهم الجنّة، والذين وصفهم ﷺ بقوله: ((كانوا لا يكتون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يتوكّلون))^(١)، قال الكرمانى (ت: ٧٨٦هـ): "فإن قلت: فهم أكثر من هذا العدد! قلت: الله أعلم بذلك، مع احتمال أن يُراد بالسبعين التّكثير"^(٢).

وختاماً لهذه القرائن لا بدّ من الإشارةِ إلى أنه قد تجتمعُ في الحديث الواحدِ أكثرُ من قرينة من القرائنِ المذكورة ممّا يقوّي أكثرَ إرادةِ المعنى البلاغيّ للعدد؛ كما في الحديث الأخير فقد اجتمعت فيه قرينتان على إرادةِ المبالغةِ من العدد؛ وهي القرينةُ السابقة من أن المتصفين بالصفات السابقة أكثرُ من هذا العدد، أي مخالفةُ الواقع، وقرينةُ استعمالِ العددِ المعهود في المبالغةِ "سبعين"^(٣). والله أعلم.

المبحث الثاني: الدلالات البلاغية للعدد:

بعد أن ذكرنا القرائن التي أشار إليها العلماء في ترجيح حمل العدد على معناه البلاغيّ دون الحقيقيّ، لا بدّ أن نذكر الدلالاتِ البلاغيةَ التي استعملَ العددُ من أجلها في النصوص النبويّة، مع الإشارةِ إلى أنّ المعنى المشترك لهذه الدلالات إنّما هو التمثيلُ بالعدد لإرادةِ المبالغة؛ المبالغةُ في التّكثير أو التقليل، كما يأتي تفصيله:

المطلب الأول: التّكثير:

وهو من أكثرِ الدلالاتِ البلاغيةِ التي استعملَ العددُ من أجلها، حتى أنّه لا يُذكر المعنى البلاغيُّ أو المجازيُّ للعددِ وإلا وينقدح في ذهن إرادةِ التّكثيرِ مباشرةً.

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس ؓ: في الرقاق/ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب/ رقم (٦١٧٥)، ومسلم في الإيمان/ الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب/ رقم (٢٢٠).

(٢) الكواكب الدراري ٤٥/٢٣.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح ١٠٤٧/٣.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، منها أغلب الأمثلة السابق ذكرها، ومنها قوله ﷺ في قصة بَريرة: «وإن اشترطوا مائة شرط»^(١). قال القرطبي: "قوله: «ولو كان مائة شرط» خرج مخرج التكثر، يعني أن الشروط غير المشروعة باطلة ولو كثرت"^(٢).

والغاية من هذا التكثر تختلف باختلاف مراد المتكلم، فقد يُراد منه تأكيد الحكم كما في المثال السابق، وكما في حديث مشروعية التيمم: «ولو لم يجد الماء إلى عشر سنين»^(٣). فالمراد بالعشر هنا التكثر لا التحديد لتأكيد مشروعية التيمم^(٤).

وقد يُراد من التكثر المبالغة لغرض التهيب، كما هو ظاهر في قوله ﷺ: «الربا سبعون حُوباً»^(٥)^(٦). وفي قوله ﷺ: «لَوْ أَنَّ حَجْرًا مِثْلَ سَبْعِ خَلْفَاتِ أَلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ هَوَى فِيهَا سَبْعِينَ حَرِيفًا لَا يَبْلُغُ قَعْرَهَا»^(٧)؛ قال الإمام المناوي في شرحه: "القصد به تهويل أمر جهنم وفضاعتها وبعُد قعرها"^(٨).

أو يُراد منه الترغيب كما في حديث «إنَّ في الجنة مائة درجة، لو أنَّ العالمين اجتمعوا في إحداهنَّ لوسعتهم»^(٩)، قال الإمام المناوي: "أي درجات كثيرة جداً ومنازل عالية شامخة فالمراد بالمائة التكثر لا التحديد"^(١٠).

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة ؓ: في الشروط/ باب ما يجوز من شروط المكاتب إذا رضي بالبيع على أن يعتق/ رقم (٢٥٧٦)، ومسلم في العتق/ باب إنما الولاء لمن أعتق/ رقم (١٥٠٤).

(٢) المفهم ٣٢٧/٤.

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر ؓ: أبو داود في الطهارة/ باب الجنب يتيمم/ رقم (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة/ باب التيمم للجنب إذا لم يجد الماء/ رقم (١٢٤)، والنسائي في الطهارة/ الصلوات بتيمم واحد/ رقم (٣٢٢).

(٤) انظر فيض القدير ٢٣٨/٤، عون المعبود ٣٦٢/١.

(٥) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة ؓ في التجارات/ التعليل في الربا/ رقم (٢٢٧٤). قال البوصيري في مصباح الزجاجاة ٣٤/٣: "في إسناده نجيب بن عبدالرحمن متفق على تضعيفه".

(٦) انظر فيض القدير ٥١/٤.

(٧) أخرجه هناد بن السري في الزهد ١٧٥/١ رقم (٢٥٢)، وأبو يعلى في مسنده ١٣٨/٧ رقم (٤١٠٣)، من حديث يزيد الرقاشي عن أنس ؓ. قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٣٨٩/١٠): "فيه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف، وقد وثق، وبقيته رجاله رجال الصحيح".

(٨) التيسير بشرح الجامع الصغير ٣٠٥/٢.

(٩) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ؓ في صفة الجنة/ باب ما جاء في صفة درجات الجنة/ رقم (٢٥٣٢) وقال: "هذا حديث غريب".

المطلب الثاني: التقليل:

وهذه الدلالة يقلّ التمثيل لها بالعدد مقارنة مع دلالة التكثر السابقة، إذ يُراد من التمثيل بالعدد هنا المبالغة في القلة.

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]. قال الإمام الماوردي (ت: ٤٥٠هـ): "العشر على طريق التقليل دون التحديد"^(١).

أما في الحديث، فقد قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»^(٢): "ليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش"^(٤).

وقال في اختلاف تحديد عدد الليالي في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ما حقُّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(٥): "واختلاف الروايات فيه دالٌّ على أنه للتقريب لا التحديد، والمعنى: لا يمضي عليه زمانٌ وإن كان قليلاً إلا ووصيته مكتوبة"^(٦).

هذا وقد يُراد بالتمثيل ببعض الأعداد التكثر والتقليل باعتبار جهتين، كما في تحديد مقدار بعث النار؛ فقد جاء تقديره في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «..... من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»^(٧)، بينما في حديث أبي هريرة: «..... من كل مائة تسعة وتسعين»^(٨). وذكر

(١) فيض القدير ٤٦٥/٢.

(٢) النكت والعيون ٤٢٥/٣. وانظر زاد المسير ١٧٥/٣.

(٣) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: في الأحكام/ باب الأمراء من قريش/ رقم (٦٧٢١)، ومسلم في الإمارة/ باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش/ رقم (١٨٢٠).

(٤) فتح الباري ١١٧/١٣.

(٥) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر في الصلح/ باب الوصايا رقم (٢٥٨٧)، ومسلم في أول كتاب الوصية/ رقم (١٦٢٧).

(٦) فتح الباري ٣٥٨/٥.

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب إن زلزلة الساعة شيء عظيم/ رقم (٦١٦٥)، ومسلم في الإيمان/ باب قوله يقول الله لأدم أخرج بعث النار.../ رقم (٢٢٢).

(٨) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب كيف الحشر/ رقم (٦١٦٤).

الكرماني في التوفيق بينهما أنّ المقصود من العددين واحدٌ؛ وهو تقليل عدد المؤمنين وتكثيرُ عدد الكافرين؛ فلم ينظر إلى حصرية العددين بل إلى القدر المشترك بينهما^(١).

وكذلك حديث ((جعل الله الرحمة مائة جزء))^(٢)، قال الكرماني: "الرحمة عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير، والقدرة صفة واحدة، والتعلق غير متناهٍ، فحصره على مائة على سبيل التمثيل؛ تسهياً للفهم، وتقليلاً لما عندنا، وتكثيراً لما عنده"^(٣).

الخاتمة: نتائج البحث:

١. الأصل عند العلماء حمل العدد على معناه الظاهري الحقيقي إلى أن تأتي قرينة صارفة إلى المعنى البلاغي.

٢. مفهوم العدد عند الأصوليين وخلافهم فيه محصورٌ بالمعنى الحقيقي الظاهري للعدد.

٣. قد تتعدد القرائن التي يترجح معها المعنى البلاغي للعدد على معناه الحقيقي.

٤. توصل البحث إلى خمسة قرائن، استدل بها العلماء في ترجيح المعنى البلاغي للعدد على معناه الحقيقي. وهي: استعمال الأعداد المعهودة في المبالغة عند العرب، السياق والمقام، إبهام آحاد العدد، اختلاف الأحاديث أو الروايات في تعيين العدد، مخالفة العدد المذكور لواقع الحال.

٥. اتفق العلماء على استعمال العدد (سبع) ومشتقاته في المعنى البلاغي، واختلفوا فيما سواه من الأعداد.

٦. في تحديد آحاد العدد استبعاداً لإرادة المعنى البلاغي له.

(١) الكواكب الدراري ٣٨/٢٣-٣٩، وانظر: فتح الباري ٣٩٠/١١.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ؓ في الأدب/ باب جعل الله الرحمة مائة جزء/ رقم (٥٦٥٤)، ومسلم في التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه/ رقم (٢٧٥٢).

(٣) الكواكب الدراري ١٦٥/٢١.

٧. من الطرق التي سلكها العلماء في الجمع بين الأحاديث أو الروايات المختلفة حملُ العدد على معناه البلاغي دون الحقيقيّ.

٨. في حمل العدد على معناه البلاغي عند تعارض ظاهر العدد مع واقع الحال دفعٌ لشبهات المشكّكين في الحديث النبوي.

٩. الغالب من استعمال المعنى البلاغي للعدد إرادةُ التكثر، لكن قد يُستعمل في معنى آخر وهو إرادة التقليل.

والحمد لله ربّ العالمين

مراجع البحث

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي/ بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن أمير الحاج، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد، التقرير والتحبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
- ابن حبان، محمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب ابن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة/ بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة/ بيروت.
- ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم، مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق عبد الغفور البلوشي، مكتبة الإيمان/ المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
- ابن رجب، عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية/ المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر/ بيروت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا.
- الآلوسي، محمود بن عبدالله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية/ بيروت، الطبعة الأولى.

- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق د.مصطفى البغا، دار العلوم الإنسانية/دمشق، الطبعة الثانية.
- البوصيري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل أبو العباس، مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية/بيروت، الطبعة الثانية.
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاکر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي/القاهرة، الطبعة الثانية.
- الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي، المكتبة العلمية/بيروت.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، الطبعة الأولى.
- السندي، محمد بن عبدالهادي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، دار الجيل/بيروت.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية/لبنان.
- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، دار الحرمين/ القاهرة.
- الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، تحقيق ودراسة د.عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز/ مكة المكرمة - الرياض، الطبعة الأولى.
- العراقي، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين، طرح التثريب في شرح التقريب، دار إحياء التراث العربي.

- العظیم آبادی، محمد أشرف بن أمیر الصدیقی، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية/ بيروت، الطبعة الثانية.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- القاري، الملا علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر/ بيروت، الطبعة الأولى.
- القرطبي، أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محي الدين مستو ويوسف بديوي وأحمد السيد ومحمود بزال، دار ابن كثير/ دمشق - بيروت، الطبعة الأولى.
- القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية/ مصر، الطبعة السابعة.
- القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- الكرمانی، محمد بن يوسف بن علي، صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرمانی (الكواكب الدراري)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، الطبعة الثانية.
- الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، تحقيق السيد بن عبدالمقصود، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن علي، التيسير شرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي/ الرياض، الطبعة الثالثة.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن علي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى/ مصر.

- الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث/ دمشق، الطبعة الأولى.
- النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي = المجتبى من السنن، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية/ حلب.
- هناد بن السري، الزهد، تحقيق عبد الرحمن الفيوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي/ الكويت، الطبعة الأولى.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي/ القاهرة.